كيف نختار موضوعا للدراسات العليا والانتاج العلمي؟

أ.د. بدر محمد ملك

البريد الالكتروني: bmalek227@gmail.com

موقع الانترنت: badermalek.com

حساب التويتر: @4bader111

يهدف البحث التربوي إلى تحقيق فهم أعمق للظواهر التي تهم المجتمع ومن شأنها أن تحل مشكلاته، وذلك وفق منهجية محددة وبأسلوب منظم يستخدمه الباحث لعرض مساهماته. ولكن ما أفضل الموضوعات المقترحة للدراسات العليا والانتاج العلمي عموما؟ هذا سؤال يتكرر وتصلنا رسائل عديدة في هذا الشأن .... وفي ضوء خبرتنا بحمد الله في ميدان البحوث التربوية منذ منتصف الثمانينات من القرن الماضي فإننا نعتقد أن هناك جملة محددات قد تنير الطريق سنذكر بعضا منها.

ينبغي بالدرجة الأولى النظر في اهتمامات وقدرات الباحثة أو الباحث، والمقررات التي أخذها في الدراسات الجامعية والعليا، أو المجالات التي يملك الأهلية في خوضها وسبق له التدرب على أساسياتها. وإلى جانب ذلك ينبغي مراعاة حاجة المجتمع وتطلعاته في ضوء رهانات المستقبل والمستجدات المتلاحقة. ما سبق بيانه يشكل أرضية أولية خصبة لانطلاقة البحث المطلوب كما أن الباحث عليه الاتصال الدائم بكتب ومقررات مناهج البحث عموما ومناهج البحث التربوي على وجه الخصوص، فهي تفتح للمواظب على تفحصها مسارات رحبة وأيضا تزوده بالروح الاكاديمية الباعثة على البحث تخطيطا وتنفيذا.

مقترحات عملية

نقترح انتقاء موضوع البحث على ضوء الاعتبارات السابقة مع التأكيد على الآتي:

1. انظر في الكتب والدورات والمؤتمرات التي تؤسس عقلية باحثة وتكوّن عاطفة متدفقة تؤمن بأهمية البحث في التنمية.

2. حاور الزملاء والأقرباء فرب كلمة تقدح زناد الفكر وأبواب العمل، وتلهم البصيرة الاصلاحية الدقيقة.

3. ابحث في المجلات العلمية المحكمة التي تصدرها الجامعات والمؤسسات المتخصصة فإن معظم الدراسات تنتهي بمجموعة توصيات ويمكن أن تشكل بداية معقولة.

4. تصفح مواقع الانترنت للمتخصصين والباحثين والنظر في رسائلهم وتوجيهاتهم (موقع بدر ملك، لطيفة الكندري، علي أسعد وطفة).

5. اطلع على التقارير والخطط التنموية في البلد مع متابعة يقظة للاتجاهات العالمية والنظريات الحديثة.

6. الافادة من المراكز البحثة المحلية والعربية والعالمية وزيارتها وأخذ المشورة منها.

7. احصل على قائمة تتضمن المجالات التي فعلا تستدعي البحث وهي مبثوثة في كتب أهل الدرارية والخبرة. قدم أ.د. عبدالرحمن النقيب مجموعة كبيرة من الموضوعات المهمة في عالمنا التربوي في أصول التربية والمناهج وطرق التدريس وعلم النفس والطفولة (ما يقارب من 200 موضوع). انظر كتاب: المنهجية الإسلامية في البحث التربوي نموذجا. القاهرة: دار الكتاب العربي، ط1 2004م. المقترحات في الكتاب المذكور نابعة من تجربة واسعة للدكتور النقيب في مضمار البحث في العالم العربي.

8. راسل أهل الاختصاص في المؤسسة التي يدرس أو يعمل فيها الباحث لأخذ بعض المقترحات الممكنة منهم.

9. تفحص التقارير القديمة التي سبق لك أن كتبتها وناقشتها وقم بتطويرها لتلائم احتياجات البحث الأكاديمي المطلوب.

10. تابع الصحف اليومية وقم بانتقاء قضايا تشغل الساحة المجتمعية وتطرق لها بأسلوب منهجي بعيدا عن الطرح الإعلامي الفاقد للمهنية الأكاديمية.

11. انظر إلى احتياجات وتطلعات المجتمع والمؤسسات التعليمية واعمل دراسة جدوى ذات انعكاسات عملية على الميدان.

12. من المواضيع المجدية العناية بقضايا الطفولة والشباب واستعراض المستجدات العصرية وبيان أثرها في التنشئة الاجتماعية في ظل المجتمع الرقمي وتنامي بيئات التعلم الافتراضي.

13. قم بعمل استطلاع أولي لمعرفة أبرز الموضوعات التي تشغل بال المعلم وبحاجة للبحث.

14. اكتب خواطرك البحثية وراجعها من حين لآخر.

15. راجع الرسائل والكتب النقدية والفكرية والفلسفية لأنها أساس انطلاق النظريات العلمية والعملية.

16. قم بزيارة باحث له باع طويل في التربية أو طالب في قسمك ومقر عملك بعقد سمنار حول القضايا التي لا زالت تشكل ثغرات بحاجة لمعالجتها.

17. استعن بالمهتمين بالسياسات التربوية وتبني بعض مقترحاتهم في هذا الأمر.

18. كن متميزا باختياراتك. لا تعمل في بحث تجامل فيه رأي الأكثرية أو تقوم به دون قناعة أو تؤديه في عجالة أو تريد ارضاء فئة ...

19. اطلب الاستشارة وفكر وقرر بعد التثبت والاستخارة. لا تجعل الآخر يفكر لك بل استأنس برأي الآخرين ولا تتبع خطاهم حرفيا فلكل وجهته واجتهاداته. استأنس بأفكار غيرك ولا تؤسس عليها كل أبحاثك.

20. اطلع على مقدمة الكتب التراثية والمعاصرة وتأمل في سبب تأليفها ومناهجها وثمارها.

21. ارجع لكتابات رواد التربية فلديهم لفتات قد تكون بدايات لمشاريع بحثية وهذا ما حصل معنا في دراستنا للشافعي والغزالي ويوسف القناعي والنوري وبنت الشاطئ.

22. تلمس مشكلات المجتمع ولقد بحثنا في الدروس الخصوصية فإذا هي قضية شائكة تتطلب مجموعة من الدراسات.

23. تحلى بالأمانة العلمية ولا بأس باستكمال الأعمال والأفكار التي تحتاج إلى بلورة أكثر...انسب القول لقائله بوضوح ودقة فالأمانة غاية الغايات، وسر البركات، وجوهر الحركة العلمية والعملية.

24. اجعل أسباب اختيار البحث وأهميته ومنهجه أساسيات بناء بحث جدير بالإثراء يفيض بالعطاء.

25. اربط أبحاثك بخطط التنمية المستدامة في الدولة.

26. تفاءل، فإن البدايات دائما صعبة وبمجرد أن تتضح الرؤية وتتبلور يكون الانجاز مذهلا ومتميزا إن شاء الله وقديما قالوا "تَفَاءلُوا بِالخَيْرِ تَجِدُوهُ".

عقبات بحثية

هناك فئة تلجأ إلى الرشوة العلمية وتبيع ضميرها من أجل الحصول على الشهادات والدرجات أو طمعا في الترقيات وصرف وجوه الناس إليها. مثل هذه الأبحاث الكاذبة مضيعة للأوقات لا يكاد ينتفع منها إنسان لأنها عصية على الأذهان وعديمة الجدوى مثلها كمثل هيشات الأسواق. إن بعض الدراسات تعج بالثرثرة ولا ترى لها ثمرة، وكما قيل "أسمع جعجعةً ولا أرى طِحْنًا". وهذه أعظم خسارة أن تصبح الأبحاث مادة للتدليس لا التدريس وأن تتحول الدراسات إلى طلاسم لا تعين صاحبها فضلا عن المجتمع. وهناك فئة أخرى تطلب طلبات معقدة لإنجاز الأبحاث وتكاد تطلب المستحيل، وثمة مكاتب تجارية كثيرة متطفلة على التخصص تبرر السرقة العلمية وتهون من شأن العلم، وهناك فئة لا تقدر البحث هؤلاء جميعا من معوقات التنمية في بلادنا.

ومن الغرائب أننا شاهدنا رسائل علمية تتضمن عددا كبيرا من الصفحات وصاحبها لا يملك لغة ثانية بل لا يعرف كيفية البحث في شبكات الانترنت أو الموسوعات العصرية. ولو أن هذا الباحث أفنى عمره في اكتساب مهارات بحثية لكانت أنفع له من صرف أوقات عمره في تكديس المعلومات دون أن تكون له قدرة على توليد أفكار جديدة في اطار ممارسات مفيدة.

سمعنا وقرأنا ورأينا الكثير من معوقات البحث بعضها ترجع للباحث وقدراته وامكاناته وأخرى للبيئة المحيطة المحبطة. ومن الرسائل التي جاءتنا تحكي عن طرف من أزمة الباحث في عالمنا العربي... يقول أحد الطلبة: "بحثتُ في الارشاد الأكاديمي وفي التربية الميدانية و دور الجامعة في خدمة المجتمع المحلي وفي المواطنة وفي النشاط الطلابي وفي العمل التطوعي وفي الحوار وفي التعليم الإلكتروني وفي الجودة وفي أدوار المعلم في القرن الواحد والعشرين وفي الوعي البيئي والغذائي والصحي وفي الشراكة المجتمعية وفي أخلاقيات العمل وفي العلاقات الانسانية وكلها ترفض ويعلم الله يا دكتور إن مشرفي للأسف متعاون معي نهائيا وإنني حاولت تغييره كذا مره ولكن كل محاولاتي تبوء بالفشل". من حق طلبتنا التعبير عن ذواتهم ومن واجبنا الاستماع لهم وتذليل العقبات دون التنازل عن المعايير العلمية العامة.

ولا شك أن مؤسساتنا التعليمية عليها أن تعتني بتكوين الباحث الأمين المفكر الناقد وعليها التخلي عن منهجيات حشد المعلومات من أجل تكديسها في ذاكرة الطالب لاجتياز الاختبارات. ينتقد المفكر السعودي إبراهيم البليهي الواقع التعليمي قائلا "نحن العرب ندرس العلوم كمسائل مما جعل العلم غير مؤثر في حياتنا ولا في أوضاعنا فالعلم في مفهومه الصحيح هو طريقة تفكير ومنهج بحث وأسلوب حياة وهذا لن يتحقق إلا بنهضة فكرية عامة وقوية تسبق التعليم وتصاحبه وتدخل في جميع مواده وتتخلل كل المفاصل فيه فالتعليم الذي يستبعد العقل الناقد ليس تعليماً لأن الحصول على المعلومات لا يحتاج كل هذا الضجيج وهذا العدد الهائل من المدارس والجامعات وتضييعُ ثلث أعمار الشباب في المقاعد الدراسية ثم تأتي النتيجة جهلٌ فظيع وتعالُمٌ فجٌّ... " (مجلة *المجلة*، لندن، الأربعاء، 30 يونيو، 2010م).

وفي هذا المسار يعاني البحث العلمي في بلادنا في الغالب الأعم من هشاشة الإطار النظري في الأبحاث، وضحالة العمق الفلسفي، واللعب بلغة الأرقام ليبدو البحث علميا ممتلئا بالأرقام ومتخما بالإحصاءات. إن هجر الفلسفة الأصيلة جعل دراساتنا مجرد نقل مخل، ونسخ ممل تنقصها عناصر التجديد، وتفتقر العمق الفكري، وتفتقد سلامة القصد، وتفتقر إلى دقة الاجتهاد.

البحث رحلة شكية وليس شهادة شكلية. البحث رحلة وشك وتنقيب وتجرد ويظن الكثير من الناس أن الشهادة غاية الأمر ونهاية المشوار فهي ورقة نقدمها للمؤسسات الحكومية. على ضوء تجاربنا المتواضعة في الكتابة والتأليف وعمل الأبحاث النظرية والميدانية وجدنا أن البحث العلمي قد يكتنفه الغموض في البداية، وقد يتخلله ملل في النهاية ولكن في حقيقة الأمر البحث رحلة نفسية نفيسة رائعة فيها بسط وقبض، وتفكيك وبناء. البحث مسيرة ثرية رغم صعوبتها ... رحلاتنا البحثية محفوفة بالمشاق ولكنها جديرة بتقديم التضحيات ورغم مفارقاتها الكثيرة هي رائعة في ثمارها خاصة عندما نتقدم في السن ونحن نسعى في تنمية المجتمع دون يأس وحينئذ تتسع آفاقنا، ونضع بصمتنا بصمت وتواضع على الثقافة المعاصرة. جميع الأبحاث بدأت متواضعة ثم أشرقت في سماء الفكر بالعمل المنظم، والإرادة القوية، والإدارة السليمة، والتفكير الابداعي.